ضوابط الشاهد الشعري عند ابن سنان الخفاجي (٤٦٦ه) في كتابه سر الفصاحة

(دراسة بلاغية ونقدية)

Controls of the poetic witness of Ibn Sinan Al-Khafaji's "the Secret of Eloquence'' in (466 AH) (A Rhetorical and Critical Study)

- Researcher: Hussein Falih Madhi Al-Thwai
University of Basrah / College of education for human sciences
E-mail: Hussinfalih1961@ gmail.com

- Assist. Professor Hana Abduruthah Raheem Al-Ruba
University of Basrah / College of education for human sciences
E-mail: Hanaa.Rahim@uobasrah.edu.iq

Abstract:

The paper aims at studying the importance of the poetic witness and its scientific and artistic status in various studies within various fields of knowledge, and its adoption by scholars of interpretation, speakers, linguists, grammarians, rhetoricians and critics. Their studies were filled with a lot of poetic evidence, which they adopted in their studies according to certain regulations; their purpose is to consolidate the rules of the sciences that they studied.

Key words: the witness, functionalization, speakers, readers, and interpreters.

ضوابط الشاهد الشعري عند ابن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ) في كتابه سر الفصاحة (دراسة بلاغية ونقدية)[*]

الباحث: حسين فالح ماضي الضويع أ٠م٠د. هناء عبد الرضا رحيم الربيعي
جامعة البصرة / كلية التربية للعلوم الانسانية
E-mail: Hanaa.Rahim@uobasrah.edu.iq E-mail:Hussinfalih1961@ gmail,com

الملخص:

يهدف البحث الى دراسة أهمية الشاهد الشعري ومكانته العلمية والفنية في مختلف الدراسات وحقول المعرفة المتنوعة ،واعتماده من قبل علماء التفسير والمتكلمين واللغوين والنحاة والبلاغيين والنقاد ، فقد حفلت دراساتهم بالكثير من الشواهد الشعرية إعتمدوها وفق ضوابط معينة غرضهم تأصيل قواعد العلوم التي درسوها فالشاهد هو أداة الحجة والبرهان ووسيلة لإثبات القواعد أو إيضاحها .

الكلمات المفتاحية : الشاهد، توظيف، المتكلمين،القراء، المفسرين .

[*] بحث مستل من رسالة الماجستير الموسومة : **(توظيف الشاهد الشعري البلاغي في كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي)**

المقدمة :

للشاهد الشعري في التراث الأدبي دور كبير وفاعل ومنه يستطيع الدارسون وضع القواعد للعلوم والمعارف ،فالإعتماد على الشواهد الشعرية كان محط أنظار الدارسين منذ أن ظهرت الدراسات النحوية واللغوية والقرآنية ، وكان أداة التطبيق العملي للمصطلحات والمعارف . ومن هذه الأهمية التي اكتسبها الشاهد الشعري في نظر الدارسين فقد وضعت له ضوابط وإصول يندرج تحتها ولايخرج عن إطارها المحدد ، وقد تنوعت هذه الضوابط فمنها لسانية ومنها مكانية ومنها زمانية ، ومن يشذ عن هذه الضوابط فلايعتد به وقد تنوعت الشواهد وتعددت الآراء فيها وانقسمت إلى قسمين منها ماهو نحوي أو لغوي أو تفسيري وهذا يخضع لضوابط الشاهد الشعري التي أقرها علماء العربية ومنها ماهو بلاغي لايهتم بالضوابط التي حددها علماء العرب والمسلمين ،وكتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي حافل بالشواهد الشعرية التي وظفها في مختلف فنون البلاغة والنقد وكانت هذه الدراسة بعنوان (توظيف الشاهد الشعري في كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦ه) (دراسة بلاغية ونقدية) لتكشف عن شواهد هذا الكتاب وماتحملة من أهمية وفائدة . مع بيان ما هي ضوابط ابن سنان في شواهده ؟

- ضوابط الشاهد الشعري:

هناك ضوابط حدّدها العلماء لاعتماد الشواهد الشعرية في الاستشهاد، منها:

- أوّلاً: الفصاحة:

تعدُّ الصحراء بما تحمله من خصائص وطبائع مهداً للفصاحة العربية، ومنشأ للسان العربي الفصيح، حيث ينشأ العربي في تلك البقعة من الأرض سليم اللسان، قوي القريحة، مطبوعاً على قول الشعر، لا تختلط لغته بلغة أخرى، ولا يشوب لسانه أي عجمة أو لكنة أو لحن[١]. والفصاحة هي ميزة يتميّز بها الإنسان العربي البدوي الصحراوي، ولذلك اتصل إتصالاً مباشراً باللسان ووصف بها العصر كلّه، فقالوا عنه: عصر الفصاحة، ويقصدون به عصر الاستشهاد الذي يمتد من بداية العصر الجاهلي وينتهي في منتصف القرن الثاني الهجري أي بداية عصر التدوين [٢].

والفصاحة المطلوبة في عصر الاستشهاد ليس المقصود بها مصطلح (الفصاحة) الذي تحدّث عنه البلاغيّون في مؤلّفاتهم، أو ابن سنان الخفاجي في كتابه سرّ الفصاحة، يقصدون به: وصف اللفظة المفردة أو المؤتلفة، فقد ((... سبق أنْ بيَّنَ الجرجانيّ أنّ المفهوم االلغوي للفصاحة ليس هو المقصود عند أهل البلاغة))[٣]، ويبدو أنَّ مصطلح الفصاحة مرَّ بمراحل متعددة كي يصل إلى دلالته تلك عند البلاغيّين،

ولكلِّ مرحلة من المراحل لها معنى ومفهوم يختلف تماماً عن غيره من المفاهيم [٤]، بمعنى أنّ الفصاحة في الدراسة اللغوية والنحوية تختلف عن مفهومها البلاغي.

ولو عدنا إلى مفهوم (عصر الفصاحة) لوجدنا أنّه يختلف من عصر إلى آخر، ففي زمن سيبويه ومن جاء بعده من تلامذته اقترن مفهوم الفصاحة بالناطق وليس بالمنطوق، فكان يقصد بالفصاحة الناطقين بها، ((٠٠٠٠ووصل إلى أن هؤلاء العلماء قد خصصوا الفصاحة بما ينطق به الفصيح، وأنّ الفصاحة زيادة على ذلك الإبانة، ومدلول الإبانة والوضوح مرتبط بمفهوميّ كثرة الاستعمال والشيوع، وبالتالي درجات الفصاحة))[٥]، وقد صرّح سيبويه في الكتاب في مواضع عدة مشيراً إلى أنّ الفصاحة تعني العرب الفصحاء أو العرب الذين يوثق بعربيتهم ، فهو لا يقصد من الفصاحة الإبانة والظهور أو صفة للفظ، وقد وردت في الكتاب لسيبويه عبارة: (العرب الفصحاء) حوالي ثلاث مرات في الكتاب، إذ قال: ((وسمعنا العربَ الفصحاءَ يقولون:))[٦]، واستعمل أيضا عبارة: (الموثوق بهم أو الموثوق بعربيتهم) في ثماني عشرة موضعاً، فقال: ((وبلغني عن العرب الموثوق بهم أنّهم يقولون: ليسني وكذلك كأنّني))[٧].

والذي يتبيّن لنا أنّ معيار الفصاحة عند سيبويه واللغويين من بعده هو العرب الفصحاء الناطقين باللغة العربية السليمة دون كلامهم، ((ولا يطلق على الفصيح إلا الناطق))[٨] من الفصحاء وليس بما ينطقون، فقد اعتمد العرب مقياس (الفصاحة) دالاً على صفة من ترتضى عربيّته، أي كون الناطق العربي الفصيح ترتضى عربيّته، ويوثق بلغته، ويؤخذ بها، ويتم ذلك باستيفاء ما يأتي [٩]:

١- السلامة اللغويّة: أي كون هذا الناطق ينطق بكلام عربي بالتمام، سليماً من الخطأ اللغوي الذي لا يعرفه الفصحاء إطلاقاً، الاستعمال الكثير المعروف من كلام الفصحاء.

٢- السليقة الخاصّة بالفصيح: كون الناطق الفصيح – أيا كان بدوياً أم حضرياً اكتسب العربية الفصيحة من بيئته التي نشأ فيها، أي أن تكون لغتها الأولى وألا يكون تعلمها من مُلَقِنٍ [١٠].

هذه أهم معايير الفصاحة قبل منتصف القرن الثاني الهجري، وهو موقف اللغويّين والنحاة عامّة في الاستشهاد بالشعر وكلام العرب، وفي نهاية القرن الثالث الهجري أصبح مصطلح (الفصاحة) يعني اللغة الأكثر ارتباطاً بالبيئة الخاصة بها ممّا يستعمله العرب، أي يكون معناها دالاً على المنطوق وليس على الناطق، وقد أشار إليها السيوطي (ت٩١١ه) في المزهر، فقال: ((وقال ابنُ خالويه في شرح الفصيح: قد أجمع الناس جميعاً أنّ اللغة إذا وَرَدت في القرآن فهي أفصح ممّا في غير القرآن لا خلافَ في ذلك))[١١]، وعدَّ ابن خالويه أنَّ لغة القرآن الكريم هي أفصح اللغات، وهي الأكثر استعمالاً في كلامهم، وأشار إلى ذلك أبو جعفر النحاس ((والقرآن إنَّما يأتي بأفصح اللغات))[١٢]، ممّا يدلّ على أنّ القرآن نزل بلغة العرب الفصيحة .

أما عند البلاغيين فقد تطوّر مفهوم الفصاحة ليدلّ على المنطوق الخالص من أي شائبة، وقد أخذت لفظة الفصاحة تتجه في مدلولها اتجاهاً غير الاتجاه الذي عُرف في القرنين الثالث والرابع الهجريين، ويبدو أنَّ هنالك اختلافاً في مفهوم مصطلح الفصاحة بين النقّاد والبلاغيين ممّا دعا ابن سنان الخفاجي إلى أن يتناول الفرق بين الفصاحة والبلاغة – وإن لم يكن سابقاً في دراستها – حيث بيّن معنى الفصاحة برؤية جديدة تختلف عن سابقيه، فقال: ((والفرق بين الفصاحة والبلاغة أنَّ الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدلّ على معنى يفضل عن مثلها بليغة وإن قيل فيها فصيحة، وكلّ كلام بليغ فصيح، وليس كلّ فصيح بليغاً كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه))[١٣] ، فالفصاحة عند ابن سنان الخفاجي هي نعت للألفاظ.

إنَّ المفهوم الذي وضعه البلاغيون للفصاحة يشمل كلّ اللغات ولا يقتصر على لغة محدّدة من دون لغة – مثلما حصل في استشهاد اللغويين والنحاة بلغة العرب الفصحاء في فترات زمنية معيّنة، وبذلك توسّع مفهوم الفصاحة لدى البلاغيّين ليشمل كلّ ما ورد في اللغات المختلفة في ضمن الفترات الزمانية المتعددة لتطبيق قواعد الفصاحة ومقاييسها ([١٤]).

وقد تحدّث ابن سنان الخفاجي عن الاستشهاد وفصّل القول فيه في باب (فصل في ذكر الأقوال الفاسدة في نقد الكلام)، فقد تحدّث عن قضية تفضيل الشعراء القدماء عند بعض العرب لمجرّد التقدّم، أو قضية تفضيلهم على أساس الطبع والتكلّف، أو تفضيلهم على أساس سبقهم إلى النعوت والمعاني، وهذه الأقوال عدَّها ابن سنان كلَّها فاسدة، وقد ناقشها بالأدلة العقلية معتمداً آراءه الفلسفية في مناقشتها، واستقرّ رأيه على الكلام المُسْتَشْهَدِ به، وبيّن سبب الاستشهاد في كلام المتقدمين من الشعراء[١٥] ، فحدّد تحقق الفصاحة عند العرب بابتعادهم عن الحواضر، وقلّة مخالطة الأجانب، مستبعداً كلّ الضوابط الأخرى، وهذا مقياس الاستشهاد عنده، ولكن يبدو لنا أنّ ابن سنان الخفاجي وإن كان كلامه يتفق مع السابقين له في تعيين معنى الفصاحة لكنه من استقراء الشواهد الشعرية في كتابه فإنّه استشهد لشعراء خالطوا غير العرب، بل سافروا إلى مناطق غير عربية، ومن ينكر ذلك على الشاعرين أبي تمام والبحتري أو المتنبي فضلاً عن كثرة اختلاطهم بالجواري والغلمان في قصور الخلفاء وبلاطاتهم.

ثانياً: الضابط الزماني:

وهو شرط حدّده اللغويون والنحاة للاستشهاد بالأبيات الشعرية، حيث وضعوا زمناً محدداً للاستشهاد، ومن بعد هذا الزمن يُعَدُّ الشعر العربي تمثيلاً لا استشهاداً، ويكون للبيان والتوضيح فقط، وليس لإثبات القاعدة والاحتجاج لها، ومثلها حدّد الباحثون للشعراء طبقاتَ للاستشهاد بالشعر، وهي:

– الطبقة الأولى: طبقة شعراء الجاهلية ممّن ماتوا قبل ظهور الإسلام.
– الطبقة الثانية: طبقة المخضرمين، وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام.
– الطبقة الثالثة: طبقة الإسلاميين الذين لم يدركوا من الجاهلية شيئاً.
– الطبقة الرابعة: طبقة المولدين والمحدثين وأولهم بشار بن برد [١٦].

إنَّ المفسرين والنحاة واللغويين لا يحتجّون بشعراء الطبقة الرابعة، وإنَّما يتوقف الاستشهاد عندهم على الطبقة الأولى والثانية، ((ألا أنّهم لم يحتجوا بشعر الجميع من هؤلاء، وإنّما شبه الإجماع انعقد على صحة الاستشهاد بالطبقتين الأوليين، واختلفوا في الطبقة الثالثة))[١٧]، وبقي الخلاف يدور حول الاستشهاد بالطبقة الرابعة، وهل يجوز الاستشهاد بشعرها ؟ أم لا يجوز، ولكن أجاز بعض العلماء الاستشهاد بشعر هذه الطبقة [١٨] ، وهذه الطبقات الأربع تجمعها فواصل زمنية محددة، فطبقة الجاهليين تمتد إلى بداية عصر صدر الإسلام، وهم أهل الجاهلية ممّن ماتوا ولم يدركوا الإسلام من أمثال زهير، والنابغة، وامرئ القيس، وعنترة العبسي وغيرهم.

وأمّا الطبقة الثانية فهم ممّن عاصروا الإسلام حتى منتصف القرن الثاني الهجري. وأمّا الطبقة الثالثة فتمتدّ من نهاية منتصف القرن الثاني الهجري إلى بداية القرن الرابع الهجري، ومن ثم تليها الطبقة الرابعة، وهي طبقة المولدين، وتبدأ من أول القرن الرابع الهجري. أي أنّ عصر الاستشهاد والاحتجاج ينتهي بالشاعر إبراهيم بن هرمة ت (١٥٠ هـ)[١٩]، وما بعدها لم يحتج بشعرهم، وإنَّما يجري مجرى المُلَح والفكاهة. فالشعر الذي احتج به، والشعراء الذين يستشهد بشعرهم يخضعون للضابط الزماني المذكور مهما كان للشعر من الجودة والاستحسان.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل سار ابن سنان الخفاجي على منهج السابقين من اللغويين والنحاة وجاء بشواهدهعلى وفق الضابط الزماني؟

من خلال دراسة شواهد ابن سنان الخفاجي وتتبّعها يتبيّن أنَّه لم يعتمد على الضابط الزماني، ولم يتجه اتجاه النحاة واللغويين وضوابطهم، وإنَّما اتجه اتجاه النقّاد والبلاغيّين المعاصرين له، كابن رشيق القيرواني(ت٤٢٦هـ)، وأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) وغيرهم، ويبدو أنَّ سبب إلتزام ابن سنان الخفاجي بطريقة النقاد والبلاغيين يعود لسببين واضحين، هما:

– السبب الأول: إنَّ الشواهد البلاغية لم تتقيد بضوابط النحاة واللغويين الزمانية، فقد تجاوزت شواهده حدود الشاهد النحوي واللغوي ولم يلتزمها، فقد نهجَ نهجِ البلاغيين والنقاد المعاصرين له، وأولئك

استشهدوا بالمولَّد وغير المولَّد، وابن سنان الخفاجي واحد من أولئك البلاغيين والنقاد المتميزين في القرن الخامس الهجري الذين ذكرناهم، فلا يشذّ ابن سنان عن أقرانه وعلماء عصره عندما يستشهد ببيت

الفرزدق(ت١١٠هـ) المشهور ((فخذ إليك الآن بيت الفرزدق الذي يضرب به المثل في تعسّف اللفظ: من الطويل:

وما مثلهُ في الناسِ إلا ممَلّكاً ... أبو أمّهِ حيّ أبوه يقاربُهُ[٢٠]))[٢١]

فقد استشهد ببيت للفرزدق وهو من الطبقة التي لا يستشهد بشعرهم، واستشهد لبشار بن برد في الطباق أيضاً، ثم تلاها بأربعة أبيات أخرى للشاعر الفرزدق: ((وقال بشار بن برد:

إذا أيقظتكَ حروبُ العدا فنبِّه لها عمراً ثمَّ نم[٢٢]

وهذا كله من المطابق المختار.

واستشهد له في باب التشبيه له أيضاً:

كأنَّ مثارَ النقعِ فوقَ رؤسِنا وأسيافُنا ليلٌ تهاوى كواكُبهُ[٢٣]

فشبّه النقع بالليل والسيوف بالكواكب وهذا تشبيه للمبالغة والتفخيم))[٢٤]، وفي استشهاداته للمولدين أبيات كثيرة لأبي تمام والبحتري والمتنبي والشريف، وهي من الكثرة التي تكاد تطغى على كلّ الشواهد٠ ولا يسع البحث لذكرها جميعاً فقد تجاوز الضابط الزماني باستشهاداته الشعرية ولكنّ ابن سنان خالف ما أدّعاه، إذ قال: ((فأمّا الاستشهاد بأشعار هؤلاء المتقدّمين، فقد بيَّنا فيما مضى من هذا الكتاب سببه، وقلنا إنَّ تقدم الزمان غير موجب لذلك، وإنَّما موجبه أنَّ العرب الذين يتكلّمون باللغة العربية ولا يخالطون أحداً ممّن يتكلّم بغير لغتهم هم الذين أقوالهم حجة في اللغة، والعرب الذين خالطوا غيرهم من العجم وفسدت لغتهم بالمخالطة لا بكلامهم))[٢٥]، فإن الأمثلة التي أوردها كانت لبشار وأبي تمام – وإن صرّح بفحولتهم– إلا أنَّ البلاغيين والنقاد يرون في شعرهم هجنة وفساداً [٢٦].

وهذا دليل على أنّه لا يلتزم الضابط الزماني، فقد استشهد في باب (الحشو) [٢٧] أيضاً بقول أبي الطيب المتنبي ت(٣٥٤هـ):

وتحتقرُ الدُّنيا احتقارَ مُجرِبٍ يرى كلَّ ما فيها وحاشاكَ فانيا [٢٨]

والذي يهمُّ البحث هو عدم التزام ابن سنان الخفاجي بالضوابط الزمانية الـتـي أقرها النحاة واللغويون إذ تخطى فيها حدود الضابط الزماني٠

والسبب الثاني: إنَّ شروط الفصاحة التي ذكرها ابن سنان لا تقتصر على لغة دون لغة، وأنّ الفصاحة هي صفة تنطبق على جميع اللغات، والشاهد فيها لا يقتصر على لغة من دون لغة، ومنه عدم إخضاع الشواهد الشعرية عنده للضابط الزماني، فيستشهد بالمولّد الخارج عن فضاء الاستشهاد الزماني، والجاهلي والإسلامي على حدّ سواء، المهم عنده هو سلامة اللغة، وأنّها تؤخذ ممّن لا يخالط لسانه الأعاجم، لكنّ ابن سنان خالف ما أدّعاه، إذ قال: ((فأمّا الاستشهاد بأشعار هؤلاء المتقدّمين، فقد بيَّنا فيما

مضى من هذا الكتاب سببه، وقلنا إنَّ تقدّم الزمان غير موجب لذلك، وإنَّما موجبه أنَّ العرب الذين يتكلّمون باللغة العربية ولا يخالطون أحداً ممّن يتكلّم بغير لغتهم هم الذين أقوالهم حجّة في اللغة، والعرب الذين خالطوا غيرهم من العجم وفسدت لغتهم بالمخالطة لا يستدل بكلامهم))[٢٩]، فإنّ الأمثلة التي أوردها كانت لبشار وأبي تمام – وإن صرّح بفحولتهم– إلا أنَّ البلاغيين والنقّاد يرون في شعرهم هجنة وفساداً كونهم من بيئات غير عربية، وعاشوا في زمان تغير فيه اللسان العربي، وتسرّبت إلى ألسن الشعراء الكثير من الألفاظ غير العربية [٣٠].

ثالثاً: الضابط المكاني:

قبل الحديث عن الضابط المكاني عند النحاة واللغويين يرى الباحث أنّه من الأفضل الحديث عن أنواع اللغات المعروفة في الجزيرة العربية لنتعرّف من خلالها على اللغة السليمة والفصيحة التي تكون ضمن فضاء الضوابط المعروفة عند الباحثين أولاً، وثانياً: ليتوافر للبحث أيّ اللغات هي الأفصح أو أيّ اللغات ينطبق عليها مفهوم الفصاحة عند ابن سنان الخفاجي، وثالثاً: لمعرفة بيئة الشاعر المستشهد بشعره عند ابن سنان، ومعرفة موقف ابن سنان من كلّ هذه التساؤلات، ورابعاً لمعرفة ما هي اللغة التي اعتمدها العرب فترة فساد الألسن، وقد تحدث أحد الباحثين عن اللغة في بداية العصر العباسي ونهاية العصر الأموي، حيث كان في الجزيرة العربية عند ظهور اللحن ثلاث لغات معروفه ومتداولة[٣١]:

١- اللغة المحكية في الحضر حتى نهاية القرن الأول الهجري، وتسمّى باللغة المثالية أو (اللغة الأدبية)، وهي لغة الشعر والخطب والمواعظ وما إليها من فنون الأدب، وهي لغة القرآن الكريم أيضاً.

٢- اللغة البدوية التي كانت تستعمل في البوادي والتي كانت تراعي أصول الإعراب، ولا تخلّ بضوابطه وأصوله، وهي التي اعتمد عليها النحاة واللغويون الذين كانوا يخرجون إلى المتكلّمين بها في بوادي نجد وتهامة والحجاز وما جاورهما.

٣- لغة الحواضر المحكية بعد القرن الأول للهجرة، وهي التي كانت تستعمل في مكة والمدينة والحيرة وأطراف الشام، وهذه اللغة لم تكن على مستوى واحد وإنما تختلف بسب حظوظها و اختلاطها بالقوميات الأخرى.

هذا الاختلاف في اللغات كان أحّد الأسباب التي دعت ابن سنان الخفاجي إلى تأليف كتابه وتسميته (سرّ الفصاحة)، إذ كان اختلاف الناس في حقيقة الفصاحة اعتماداً على البيئات التي انطلقت منها واضحاً، فالفصاحة لم يتبلور مفهومها بشكل كامل في الثقافة العربيّة عامّة والبلاغية خاصّة حتى زمن

أبي هلال العسكري، فكان هذا الاختلاف أحّد أسباب تأليف كتابه، إذ يقول:((أمّا بعد فإنّي لمّا رأيت الناس مختلفين في مائية الفصاحة وحقيقتها أودعت كتابي هذا طرفاً من شأنها، وجملة من بيانها، وقرّبت ذلك على الناظر، وأوضحته للمتأمل، ولم أمل بالاختصار إلى الإخلال، ولا مع الإسهاب إلى الإملال، ومن الله تعالى أستمد المعونة والتوفيق))[٣٢] فقد أدرك ابن سنان جيداً إنَّ مفهوم الفصاحة لم يكن واضحاً للدارسين، وأراد أنْ يعود باللغة الفصيحة إلى اللغة البدوية التي تنطق في البوادي، وهي اللغة الأصيلة التي كانت تُراعى فيها ضوابط الإعراب، والتي اعتمد عليها النحاة واللغويون كما بينا ٠

ومن المعلوم أنْ قبائل العرب في كثير من أمصارها خالطت غير العرب من الفرس والروم، وتسربت إلى ألسنِ العرب الكثير من الثقافات ووسيلة تلك الثقافات كانت اللغة، فتداخلت لغات الأقوام الأخرى مع اللغة العربية، وحلَّت مكان اللغة الأم، وهذا العامل من العوامل المهمة التي دفعت العلماء من العرب إلى أن يتركوا أهل الحواضر ولغتهم، ويتجهوا إلى البوادي ليأخذوا منهم اللغة السليمة الخالية من فساد اللسان.

من خلال ما سبق نتبين أنّ الاستشهاد في الكلام العربي اعتمد بالدرجة الأساس على العصر لا على الشعر، فمهما كان للشعر من امتيازات، ومهما تمتع الشاعر وامتلك من قابليات شعرية لا يُؤخَذ بشعره، إذا لم يكن ضمن الأطر التي حددها الدارسون من اللغويين والنحاة ، فالعصر والمكان عندهم هو المقياس وليس الشعر، وما عدا هذه القبائل لا يمكن لأي دارس أن يتخطّى هذه الحدود المكانية ويستشهد في الدراسات اللغوية والنحوية حصراً ،لأنّه يعدُّ خروجاً على المألوف والمسنون، وكثيراً ما صرّح بذلك علماء اللغة أنفسهم، فالأصمعي كان لا يحتج إلا بالشعر الجاهلي والعصر الإسلامي، وأبو عمرو بن العلاء كان يقول عن بشّار لو كان من أهل الجاهلية لاحتججنا بشعره، وهي دعوة للاعتراف بشعره إلا أنّه عاش في فترةٍ متأخرة عن عصر الاستشهاد. وأمَّا ابن سنان الخفاجي في كتاب سر الفصاحة فهو لا يعتدُّ بالضابط المكاني في إيراد شواهده فيستشهد لإثبات القواعد بالمولّد والى جانبه الجاهلي، وبالإسلامي والى جانبه المولّد، أو الشاهد القرآني، وقد رفض تفضيل الشاعر بحسب العصر أو المكان، إذ قال: ((ذهب قوم من الرواة وأهل اللغة إلى تفضيل أشعار العرب المتقدمين على شعر كافة المحدثين، ولم يجيزوا أن يلحقوا أحداً ممّن تأخّر زمانه بتلك الطبقة، وإن كان عندهم محسناً، واختلفوا في علّة ذلك، فزعمت طائفة من جهّالهم أنّ العلّة فيه هي مجرد التقدّم في الزمان))[٣٣] .

بقي أن نشير إلى نقطة أساسية وجوهرية، وهي هل أنّ الشاهد البلاغي يخضع للضوابط نفسها التي التزمها علماء اللغة والنحو في مرحلة الاستشهاد ؟ أو لا يخضع ولماذا ؟

لقد تحدثنا عن ضوابط الاستشهاد في كلام سابق، وبيّنا هذه الضوابط، وقد أشار البحث إلى تحديدها بفصاحة الناطقين والمكان والزمان، ولا يجوز الاستشهاد بأي شاهد ما لمْ يقع ضمن الفضاء

الزماني والمكاني المحدّدين لهما، هذه الضوابط تنطبق على الشاهدين اللغوي والنحوي فقط، أما الشاهد البلاغي فقد تجاوز حدود الفضاء المكانية والزمانية، وعلَّة ذلك أنّ البلاغة لم تحدّ بمكان ولا زمان معيّنين، وهذا الأمر واضح وبيّن في دراسات النقاد والبلاغيين السابقين لابن سنان، أو من جاء بعده، فلا نجد عالماً بلاغياً أو نقدياً قد أخضع شواهده البلاغية أو النقدية لضوابط اللغويين والنحويين والمفسريين، فقد استشهد أبو هلال العسكري في باب التشبيه بأبيات شعرية للمولدين وهي خارج حدود الشاهد المقررة، ((وقد جاء فى أشعار المحدثين تشبيه ما يرى العيان بما ينال بالفكر، وهو ردىء، وإن كان بعض الناس يستحسنه لما فيه من اللطافة والدّقة، وهو مثل قول الشاعر:

وكنتُ أعـزّ عـزّاً مـن قنوعٍ يعوّضُه صفوحُ من ملولِ
فصرتُ أذلّ من معنى دقيقٍ به فقــرٌ إلى فهمٍ جليلِ

وكقول الآخر:

وندمــان سقيت الـرّاح صرفا وأفق اللّيل مرتفع السّجوف
صفت وصفت زجاجتها عليها كمعنى دقّ فى ذهن لطيف(٣٤)))[٣٥]

وهذا اعتراف منه باعتماده على أبيات المولدين، وهو لا يخضعها لضابط بعينه.

وابن رشيق في كتابه العمدة كذلك فعل، ففي باب التشبيه استشهد ببيت شعر لبشار، إذ قال: ((وحكي عن بشار أنّه قال: ما قرّ بي القرار مذ سمعت قول امرئ القيس: كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً حتى صنعت:

كأنّ مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه(٣٦)))[٣٧]

وعبد القاهر الجرجانيّ استشهد أيضاً بهذا البيت مع قول المتنبي:

زور الأعادي في سماء عجاجة أسنّته في جانبيها الكواكب(٣٨) [٣٩]

وقد أورد البغدادي في الخزانة نصاً بيَّنَ من خلاله طرق الاستشهاد الشعري، مقسّماً فنون الأدب إلى ستة أقسام منها: اللغة والنحو والصرف، وهذه العلوم الثلاثة لا يُسْتَشْهدُ بها إلا بكلام العرب الموثوق بعربيته، وأمّا علم المعاني والبيان والبديع، فيستشهد لها بكلام العربي وغير العربي[٤٠]، فعلوم اللغة والنحو والصرف علوم محكومة بضوابط زمانية ومكانية تمتد إلى القرن الرابع الهجري بالنسبة إلى أهل البادية، والقرن الثاني الهجري بالنسبة إلى أهل الحضر، وقد وسَّع علماء البلاغة والنقد دائرة الاستشهاد البلاغيّ إلى ما لا نهاية، ولم يخضعوا الشاهد البلاغي والنقدي إلى ضوابط الاستشهاد المعروفة، أضف إلى ذلك أنَّ الشاهد البلاغي والنقدي عندما يتجاوز حدود الاستشهاد وضوابطه فهو لا يعدّ شاهداً بالمعنى الدقيق وإنّما يخضع لضوابط المثال، ((وشواهد البلاغة لا تعدّ شواهداً بالمعنى الإصطلاحي الدقيق، فكثير منها

قد ورد من باب التمثيل للقواعد التي وضعها البلاغيون))[٤١]، ومن هنا خرج الشاهد الشعري من منظومة الضوابط المعروفة عند الباحثين، وعدم التزامه بتلك الضوابط.

الخاتمة :

من دراسة الشواهد الشعرية في كتاب سر الفصاحة توصل البحث إلى الاستنتاجات الآتية :

أولاً: للشاهد قواعد وضوابط يدخل من خلالها إلى فناء الدراسة العلمية والبحث العلمي ويعتمد على أساسها كجزئي الذي يؤصل للقواعد والفنون ويقعد لها وهذه الضوابط لاتشمل كل العلوم والمعارف كما في شواهد البلاغة والنقد .

ثانيا : الضوابط التي قررها العلماء لاتخضع لها شواهد البلاغة وإنَّما تختص بالدراسات النحوية واللغوية والتفسيرية فقط وأما الدراسات البلاغية فقد اتسعت لتخرج عن الضوابط المحدودة وتكون عامة لكل زمان ومكان ولغة .

ثالثا: لايلتزم ابن سنان الخفاجي بضوابط الزمان والمكان فقد استشهد للجاهليين والإسلاميين والعباسيين .

رابعا:هناك ضوابط حددها ابن سنان لم يعتمدها من يقول بفكرة الضوابط منها فحولة الشعراء فقد اخذ من الشعراء العباسيين وعدَّهم من الشعراء الفحول كالفرزدق وأبي تمام والبحتري والمتنبي ودعبل وهم خارج دائروة الضوابط الزمانية والمكانية .

خامسا : اعتمد شواهد المحدثين من الشعراء العباسيين أكثر من الجاهليين والإسلاميين وربما يعود السبب لوجود التجديد في شعر هؤلاء الفحول –على حد تعبيره – والتجديد ميزة ظاهرة في الشعر العباسي كان ابن سنان الخفاجي يراها مسايرة لرغبة المجتمع العباسي في التجديد .

الهوامش :

١) ينظر : تاريخ آداب العرب: الرافعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ):ج٣ : ١٣ وينظر الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم :٢٦

٢) ينظر:تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)شوقي ضيف :ص١٧، ومابعدها، وينظر :السماع اللغوي علي أحمد عبدي الفريح :ص٥ ،ومابعدها

٣) السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة: ٣٨.

٤) ينظر: المصدر نفسة :ص٣٨ وينظر : السماع اللغوي :الفريح : ٥١

٥) التفكير النحوي عند عبد الرحمن الحاج صالح: ٨٧ ، وينظر السماع اللغوي: ٣٩

٦) كتاب سيبويه: ٢١٩.

٧) المصدر نفسه: ٢٨٥.

٨) ينظر التفكير النحوي عند عبد الرحمان الحاج صالح :سعاد شرفاوي :٨٤ ومابعدها

٩) ينظر: السماع اللغوي العلمي عند العرب، ومفهوم الفصاحة: ٥٣ وما بعدها.

١٠) ينظر: السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة: ٣٩.

١١) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: للسيوطي :١٦٨.

١٢) المصدر نفسه: ١٦٨.

١٣) سرّ الفصاحة:٥٩

١٤) ينظر:السماع اللغوي ص٢٤

١٥) ينظر: سر الفصاحة:٣٠٢

١٦) الاقتراح للسيوطي :١٤٤ وينظر الشاهد الشعري عند الزمخشري في كتابيه المفصل والكاشف دراسة في المستويات اللسانية ص ١٩

١٧) الشاهد الشعري عند الزمخشري في كتابيه المفصل والكشاف :١٩

١٨) وَقيل يستشهد بِكَلَام من يوثق بِهِ مِنْهُم وَاخْتَارَهُ الزَّمَخْشَرِيّ واستشهد بأشعار أبي تمام : وقد علل سبب إستشهاده (فَإِنَّهُ اسْتَشْهد بِشعر أبي تَمام فِي عدَّة مَوَاضِع من هَذَا الشَّرْح وَاسْتَشْهدَ الزَّمَخْشَرِيّ أَيْضا فِي تَفْسِير أَوَائِل

الْبَقَرَة من الْكَشَّاف بِبَيْت من شعره وَقَالَ وَهُوَ وَإِن كَانَ مُحدثا لَا يستشهد بِشعرِهِ فِي اللُّغَة فَهُوَ من عُلَمَاء الْعَرَبيَّة فأجعل مَا يَقُوله بمنزل مَا يرويهِ) ينظر :خزانة الأدب:ج١ : ٦،٧

١٩) ينظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٤٩.

٢٠) البيت ورد في معجم شواهد العربية :٥٢

٢١) أسرار البلاغة: ٢٥

٢٢) البيت لم نعثر عليه في ديوان بشار ولم نعثر عليه في معجم شواهد العربية

٢٣) ينظر: ديوان بشار: ٤٦.

٢٤) سرّ الفصاحة:٢٦٧.

٢٥) ينظر: سر الفصاحة :٣٠٧

٢٦) ينظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٤٩.

٢٧) ينظر: سرّ الفصاحة:١٥١.

٢٨) البيت ورد في ديوان المتنبي:٧٥.

٢٩) سرّ الفصاحة: ٣٠٧.

٣٠) ينظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٤٩.

٣١) ينظر: المدارس النحوية: ٥١، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : ١٦/ ٢٦١- ٢٧١، وتاريخ آداب العربية: الرافعي: ١٦٨ وما بعدها.

٣٢) سرّ الفصاحة: ٧

٣٣) سرّ الفصاحة: ٣٠٢.

٣٤)الأبيات لم تنسب لقائل معين

٣٥) كتاب الصناعتين: ٢٣٩.

٣٦) البيت ورد في ديوان بشار :٤٦

٣٧) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ٢٩١.

٣٨) والبيت ورد في ديوان المتنبي: ٧٥.

٣٩) ينظر: أسرار البلاغة: ١٣٠

٤٠) ينظر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: ٤.

٤١) الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم: ٨١.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١) تاريخ آداب العرب: مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ) لبنان ،بيروت :دار الكتاب العربي لطبعة: الرابعة ١٣٩٤- ١٩٧٤

٢) الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم :د:عبدالرحمن بن معاضة الشهري ،السعودية – الرياض دار المنهاج: ط١،١٤٣١

٣) ينظر:تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)شوقي ضيف : مصر القاهرة :دار المعارف ط:١٩٦٠

٤) :السماع اللغوي ،علي أحمد عبدي الفريح جامعة اليرموك ،رسالة ماجستير :١٤١٧- ١٩٩٧

٥) السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة: د ،عبد الرحمن الحاج صالح ،الجزائر ،موفم للنشر،الجزائر ٢٠١٢الإيداع القانوني ٢٠١٢-٤٩٠

٦) الكتاب سيبويه: : عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ)المحقق: عبد السلام محمد هارون: مكتبة الخانجي، القاهرة:الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

٦) ينظر التفكير النحوي عند عبد الرحمان الحاج صالح :سعاد شرفاوي :٨٤ ومابعدها

٧) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)المحقق: فؤاد علي منصور: دار الكتب العلمية – بيروت:الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م

٨) : سر الفصاحة :ابن سنان الخفاجي :ت : ابراهيم مكي طنطاوي ،مصر،دار الغدير،ط١،٢٠١٩

٩) الاقتراح للسيوطي :جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)ت:محمد سليمان ياقوت ،مصر : دار المعرفة الجامعية:١٤٢٦_ ٢٠٠٦م

١٠) وينظر الشاهد الشعري عند الزمخشري في كتابيه المفصل والكاشف دراسة في المستويات اللسانية :مسعود غريب،الجزائر ،جامعة قاصدي مرباح السنة الجامعية ٢٠١٣- ٢٠١

١١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ):تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون: مكتبة الخانجي، القاهرة:الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

١٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه، أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢هـ) : تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوير: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

١٣) معجم شواهد العربية :د عبد السلام محمد هرون :مصر ،القاهرة ،مكتبة الخانجي ،ط٣،٢٠٠٢

١٤) أسرار البلاغة فى علم البيان: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى:٤٧١هـ):المحقق:عبد الحميد هنداوي: دار الكتب العلمية، بيروت:الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

١٥) ينظر: ديوان بشار: محمد طاهر بن عاشور ،الجزائر ،وزارة الثقافة الجزائرية ،٢٠٠٧

١٦) ديوان المتنبي: المتنبي ،بيروت لبنان :دار بيروت للطباعة والنشر :١٩٨٣

١٧) ينظر: المدارس النحوية: د خديجة الحديثي ،الأرد ن، أربد، ادار الأمل ،ط٣ ،١٤٢٢- ٢٠٠١

١٩) مفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام : الدكتور جواد علي : دار الساقي : الطبعة الرابعة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

٢٠) الصناعتين الكتابة والشعر:أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ت(٣٩٥هـ):تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم: المكتبة العصرية ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م: النشر بيروت

٢١) لعمدة في محاسن الشعر وآدابه: أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ):المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد: دار الجيل:الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م